الاسلام والفن والحياة

للاستاذ منصور رجب الله

ما زال القلم ينازعنى فى التعقيب على نبأ طالعتـه فى الصحف قبل أشهر ، وما برحت أطامن نفاره وأروده عن جماحه حتى غلبنى على أمرى فكان هذا المقال !

وقصارى هذا النبأ أن « جمل المحمل » نفق ، وليس فى هـذا شئ ، فما كان نفوق حيوان ليسترعى الأذهان ، ولـكن بعض الصحف أبرز هـذا الخبر فى إطار مبالغة فى الاهتمام به ولفت النظر إليه . إذن فليس الأمر أمر حيوان نفق وصار جيفة من الجيف ، فلا بد أن للخبر وجها آخر يعادل هذا الوجوم المرتسم على كثير من الوجوه التى طالعها الخبر

إن الذين قرأوا نبأ نفوق جمل المحمل ، عرفوا من قبل أن « طلعة المحمل » قد ألغيت منذ هذا العام ، وأن أهل القاهرة سوف يحرمون هـذه « البدعة » التى جرت بها التقاليد منذ عهد «أم خليل المعتصمية» المشهورة فى التاريخ باسم شجرة الدر ، ومن ثم كان الحزن وكان الوجوم ، وكان التساؤل : أى خير فات الأمة من بقاء المحمل ؟ ومتى نهى الدين عن المحمل ؟ وهل من الخير أن نقحم الدين فى كل شأن من الشئون ؟

وقبل عام وبعض عام كانت المعركة محتومة بيننا وبين الطغاة المحتلين على ضفاف القناة ، وكنا نمنى قوانا ونستنهض الهمم والعزائم ، وإذا بشيخ جليل القدر كبير المكانة ، يطلع علينا بمقال ضاف فى إحدى الصحف بأن تقبيل زمام جمل المحمل حرام ، وأن الدورات السبع لجمل المحمل لم ترد فى الكتاب ولا فى السنة ، وقرأنا هذا الكلام ونحن فى قتام المعركة وقبل أن ينجلى عن اللحمة غبارها ، نهد للشيخ الوقور من يقول له إن تقبيل زمام الجمل لا يعنى إلا تمجيد المعنى الذى يعنيه سفر المحمل إلى البقاع القدسية وأن التقليد القائم على دورات المحمل السبع لا يعنى إلا التمثل بالأشواط السبعة حول الكعبة المشرفة أو بالأشواط السبعة بين الصفا والمروة

وكنت أحب أن أرد على الشيخ ، وكانت النفس فى سورة جامحة ، ذلك أن إثارة ذلك الموضوع فى هاتيك الأيام لم يكن يقصد به وجه الله ، وإنما كان يراد به صرف الأذهان عن مجاهدة الأعداء

واليوم أرجو أن أستميح القارئ عذرا إذا تحدثت فى هـذا الموضوع ، فلقد كثر الحديث فى هذه الأيام حول ولاية علماء الدين فى الإسلام وتمرض الأزهر الشريف لمحنة سوف يخرج منها إن شاء الله منصورا مبجلا من أهله ومن غير أهله

ولقد قدمنا الحديث بجمل المحمل ، ولا نريد أن نتزيد أو نحمل الألفاظ أكثر من معانيها ؛ وإنا نقول لها صريحة إن « المحمل » ليس من الدين ، ولم يكن ثمة « محمل » فى عهـد رسول الله ولا فى عهود الخلفاء الراشدين ولا ملوك الأمويين ولا العباسيين ، وإنما ابتدع المحمل فى نهاية الدولة الأيوبية ، ليكون هودجا لشجرة الدر ، ثم جرى به العرف والتقليد من ذلك العصر ، فكانت قافلة تعبر القاهرة المعزية إلى السويس ثم تجتاز صحراء سيناء ، والركب خلال ذلك يهللون ويكبرون ، فتتجاوب الأصداء بكلمة الله بين تلك المهامه البيد والتنائف الفيح حتى يبلغ الركب البقاع المقدسة التى ضمت بيت الله الحرام وقبر الرسول الأعظم عليه صلوات الله ومقابر الصحابة والتابعين عليهم رضوان من الله أكبر

فأى جلال هذا الجلال ، وأى جمال هذا الجمال !

أبعد قرابة ألف عام يطلع علينا من يزعم أن المحمل « بدعة » فى حين أن البدعة على ما فهمها الفقهاء « كل

شئ ليس له أصل فى الدين » وليس المحمل يندرج تحت هذه البدعة ، وإنما هو مظاهرة دينية فيها فن وفيها جمال ، ولقد بصرت بعينى مواكب المحمل ورأيت الألوف من الشاهدين تموج عيونهم بالدمع ، وهم يودعون ركب المحمل ويقبلون الكسوة وهى فى طريقها إلى الكعبة أو إلى قبر الرسول . لقد رأيت الناس يذرفون الدمع الهتون شوقا إلى البقاع المقدسة ويعاهدون الله أن يزوروها إذا مد لهم فى الأجل . فإذا لم يكن للمحمل إلا هذه الفائدة ، لكفاه فخرا ، وهل بعد التشويق لزيارة البيت الحرام زيادة لمستزيد ؟

وإنى لأذكر الساعة أن ركب المحمل منع من السفر من مصر إلى الحجاز أحد عشر ماما ، ثم أذن له بالسفر عام ١٩٣٧ وتواكب الناس لرؤيته من كل فج حتى عمرت القاهرة واكتظت جنباتها ، وقيل إن عدد المشاهدين بلغ ألف ألف ، وأذاع المسئولون عن النظام يومئذ أنه رغم هذا الجمع الهائل لم تحدث سرقة واحدة ولا حادث مخل بالآداب . أبعد هذا يقال إن المحمل « بدعة » لأنه لم يكن فى عهد النبى ولا فى عهد الخلفاء الراشدين !

لقد كان المحمل ضربا من « الفن » قضينا عليه بأيدينا ليعلم غير أهل الإسلام — بغير حق — أن الإسلام عدو للفن والتقاليد الصالحة ، ولأننا صرنا إلى حال من الفوضى الدينية لا يرضى عنها عدو ولا نصير . ولسنا نعرف والله ماذا يضير الإسلام فى قواعده الخمس التى لا يأتيها الباطل إذا بقيت التقاليد التى لا تمس الجوهر والتى فيها الجمال الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى « ولكم فيها جمال »

إن رجال الأديان الأخرى فهموا الدين على حقيقته الطبيعية ، فجعلوا منه فنا وتزاويق وموسيقى تغرى الناس باعتناقه ونحن فى القرن العشرين نريد أن نجعل من الإسلام دينا تجريدياً لا يفهمه إلا الفلاسفة ، وهيهات أن يكون الناس كلهم فلاسفة

فإذا رخم المؤذن صوته بالآذان وحلاه ، قلنا هذه بدعة ، وينبغى أن يكون الآذان خاليا من الطلاوة والحلاوة وأن يؤديه صاحبه بجلافة وكأنما يفجر قنبلة أو يلقى حجرا ، وكأنما غاب عنا أن لحلاوة الصوت مدخلا للآذان ومعبرا إلى الإيمان . ولقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعرى يرتل القرآن بصوت حنان فأعجبه الصوت الندى وأثنى على صاحبه بقوله « كأنما أوتيت مزمارا من مزامير داود » وهش أبو موسى لهذا الثناء وقال « والله يا رسول الله لو كنت أعلم أنك تستمع إلى لحبرته لك تحبيرا » أى لزاد فى حلاوة الصوت وجمال الترتيل

فهذا خاتم المرسلين قد قدر الفن وشجع أهل الفن وجئنا من بعده ندعو إلى غير ما يدعو ، وصرنا نرمى كل ذى رأى بالابتداع أو بالوثنية

ولقد انصرف كثير من الوعاظ عندنا إلى التنفير من كل فن وغاب عنهم أن الإسلام مجد الفنون ودعا إلى الأخذ بها ، وإنما نهى عن الشرك بالله ، ودعا إلى إقامه دعائم الدين ، وليس من الدين أن يقصر كثير من الشيوخ حديثهم حول الوسيلة والشفاعة ، والقول بأن الصلاة على النبى بعد الآذان بدعة وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة بدعة

وهنا أقف قليلا لأرى فى صيغة الصلاة على النبى بعد الأذان ضربا جميلا من فن النغم ، وليس فى الأمر بدعة وإنما هو شئ طبيعى ، وليس لدى الساعة مرجع تاريخى يسعفنى لأذكر الميقات الحقيقى لدخول هذه الصيغة المحببة على الآذان ، وإن كنت أستبعد أنها وقعت فى العهد الايوبى كما ذكر بعض المؤرخين ، وإنما أرجح أنها جاءت لعهد عمر بن عبد العزيز الذى استبعد سباب أهل البيت بعد الآذان

كذلك أبعدنا الإسلام عن كل فن حين قلنا بهدم القبور والانصراف عن زيارة مقابر الأولياء ، وزعمنا أن كل أولئك « بدعة » بل هو ضرب من الوثنية ، فى حين أننا نقرأ فى السيرة النبوية أن النبى صلى الله عليه وسلم حين دفن وحيده إبراهيم سوى عليه بيده الشريفة ورش الماء وأعلم عليه بعلامة وقال « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحى »

ولما طاف عمر بن الخطاب بالكعبة فى أول خلافته استلم الحجر الأسود وقال « اللهم إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » وورد فى بعض المراجع أن ابن عباس شوهد يوما — وهو فى طريقه إلى الحج — راكبا ناقة يدور بها حول شجرة ، ولما قيل له فى ذلك أجاب بأنه رأى مرة ناقة الرسول عليه السلام تطوف بهذه الشجرة فأراد أن يتبرك بآثار ناقة الرسول

وفى القرآن الكريم ما يدل على التبرك بآثار الصالحين فى قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا » « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا »

وغنى فى القول بأنه فضلا عن التبرك بآثار الصالحين فإن فى إقامة هذه المقابر ضربا من الفن ، لأن الأضرحة تشيد على أنماط خاصة وزخرفة خاصة تأخذ العين وتستهوى القلب وتدفع النفس إلى التذكرة . والاستشهاد بالحديث الشريف « لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا » لا ينفى على الإطلاق زيارة مساجد الأولياء ؛ فكما أن المرء يشد رحاله لزيارة صديق أو قريب لا عليه أن يسافر ليصلى الجمعة فى مسجد الإمام الحسين أو فى مسجد السيد البدوى مثلا

ويجرنا هذا إلى الحديث عن الإيمان التجريدى مرة أخرى ذلك الإيمان الذى لا يعرفه حق المعرفة إلا خاصة الخاصة ممن اصطفى الله ، ولسنا نطالب عامة الناس بمثل هذا النوع السامى من الإيمان ، فالناس يخاطبون على قدر عقولهم ، وقد سأل النبى مرة جارية أعجمية « أين الله ؟ » فأشارت إلى السماء فعدها الرسول الكريم مسلمة

ولقد كان الخليفة المأمون رجلا فيلسوفا يؤمن بالله إيمانا مجردا ، بيد أنه رزئ فى أخريات أيامه بصحبة القاضى أحمد بن أبى دؤاد فزين له أن يحمل رعاياه كلهم على شاكلته أى من المعتزلة ، فأوقعهم فى النازلة الكبرى التى سودت تاريخه ولطخته ، ونعنى بها محنة خلق القرآن ، ومات المأمون ، وبلغت المحنة أقصى حدتها فى عهد الخليفة المعتصم وكان رجلا فظا لا يعرف من الدين إلا أولياته ، ووقع بين براثنه الإمام العظيم أحمد بن حنبل ، وأبى أن يقول بخلق القرآن ، فلطمه على وجهه وأمر به فجلد حتى غشى عليه .

ولما جاء بعده الخليفة الواثق خفت حدة المحنة ، حتى إذا تولى « المتوكل على الله » أمر برفع المحنة وقال بالرجوع إلى الكتاب والسنة ؛ ولذا ذهب فى الناس قولهم « الخلفاء ثلاثة : أبو بكر فى حروب الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رد المظالم ، والمتوكل فى إحياء السنة »

ولم يكن الخليفة المتوكل فى علم سلفه المأمون ولا فى فقهه ، بيد أنه أدرك من خلائق البشر مالم يدركه المأمون ؛ ذلك أن الدين سجية وفطرة وليس حكرة لأحد من العالمين. وليس لمسلم وصاية على مسلم ما دامت قواعد الإسلام الخمس الأصيلة مرعية الجانب ، وليس لإنسان أن يقحم نفسه فى دقائق الأمور وتفصيلاتها ، ولقد ذهب العهد الذى يرمى فيه المسلم بالإلحاد أو الزيغ لأنه خالف فعل إمام من الأئمة أو تزيد أو إبتدع

وما دمنا نتحدث عن صلة الإسلام بالفن والحياة ، فلا علينا أن نعرج على رجل عظيم الشأن من علماء الدين

ما زالت تعاليمه تحدث الفتنة وتجعل المسلمين يحبون فيها ويضعون ، ونعنى به شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ فأكبر الظن أن الرجل كان يبغى خير الأمة ، وإن شذ فى بعض الأمر حتى بدعه طائفة من علماء عصره من سبعة عشر وجها ، وحتى اتهمه التقى السبكى بالزيغ من ثلاثة وجوه ، نقول إنه كان رجلا عظيما لا شك فى ذلك . قال ما اعتقد ، ولا أحسبنى غاليا فى القول إذا زعمت اليوم أن عظامه تضطرب فى قبرها لما أحدثت تعاليمه التى تأولها المتأولون من الفتنة والفرقة ؛ إذ قام من بعده الشوكانى وابن القيم الجوزية ولم يكن لهما علمه ولا فضله ، فلجا فى الأمر وكفرا جماعة المسلمين . ثم تبع هذين محمد بن عبد الوهاب الذى بالغ فى تكفير المسلمين ورفع حد السيف لمحاربة المسلمين بدعوى أنهم « كفار » وأسرف فى هدم الأضرحة والقباب فى نجد ، ثم عدا أتباعه على الأرض المقدسة فهدموا أضرحة الصحابة الأمجاد وأزالوا القباب ذات الأثر الفنى الرائع وكادوا يأتون على مسجد الرسول الأكبر لولا صرخة ارتفعت من ضمير العالم الإسلامى

نستطيع أن نقول إن هؤلاء الناس فهموا الدين فهما مجردا لا فن فيه ، فهو عندهم مجرد ركوع وسجود ، وزكاة وحج وصوم ومعاملات ، وأن المسلم عندهم ينبغى له أن يكون أداة صماء تنفذ التعاليم المكتوبة دون تصرف ولا مرونة ، ودون مجاراة لروح العصر ، ودون أخذ لما يقتضيه علم الاجتماع وطبائع البشر ، فإذا لم يفعل المسلم هذا فهو ملحد وأى ملحد !

ومن هنا اتهموا أتباع الطرق الصوفية بالكفر فى حين أن الطرق الصوفية كان لها فضل كبير على المسلمين فى الحروب الصليبية وفى حروب المغول وفى وقعة عين جالوت بالذات ، فإن العز بن عبد السلام الذى نفر المصريين للقتال لم يكن إلا شيخ طريقة . على أن هؤلاء معذورون فيما يرون ؛ فمتهم أن أتباع الطرق الصوفية إنهم إلا حواة يروضون الثعابين ويأكلون الحديد ويلعبون بالنار ، وغاب عنهم أن سوء استعمال الشئ ليس دليلا على فساده ، وإنما الفساد أن يرمى المؤمن البرئ بالكفر ، وأن يكون راميه على غير حجة أو بينة

* * *

ونخلص من هذا الحديث إلى أن الإسلام ليس دينا ودولة فحسب ، كما يحلو لطائفة من جلة المؤمنين أن يقولوا ، وإنما هو دين ودنيا ، وعلم وفن ، بل هو مرادف للحياة فى ذاتها ، الحياة فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، وإن المتزمتين المتنطعين الذين يفهمون الإسلام على أنه تعاليم كتبها فقهاء طوتهم الأجيال ، هؤلاء لم يعد لهم مكان فى دنيا الإسلام ، ولا فى دولة الإسلام ، ولا فى دين الإسلام

منصور جاب الله

بنك مصر

أسس شركاته الكبرى التى وظف بها خصائص البلاد واستغل مرافقها فإذا بها الدعائم التى قام عليها نشاط التصنيع القومى فى مصر وكانت السياج المنيع للتحرر الاقتصادى منذ ٣٢ عاما فدل على الكفاية المصرية وتفوق المصريين فى مضمار الحياة العملية